التقديم والتأخير في ألفية ابن مالك .. رؤية نصية

أ . د . عبد السّلام حامد

ليس من شك في أن ألفية ابن مالك أو أية منظومة علمية أخرى، يمكن أن تدرس وفق المنهج الأسلوبي وعلم النص؛ بهدف بيان سماتها وكيفية بنائها وعوامل نجاحها أو إخفاقها وعدم انتشارها. ورغم أن منهج علم النص يقدم نظرية أكثر تقدمًا وجِدّة وشمولاً من علم الأسلوب - يمكن الاتكاء على النظريتين معًا في هذا العمل بشكل تكاملي، يجمع إلى كلية نظرية علم النص وإحكامها، بعضَ التفاصيل والإجراءات المهمة من علم الأسلوب خاصة منهجه الإحصائي. ولا بد في هذا الإطار من الاستناد على عدة مبادئ وأسس، منها مبدأ الاعتماد على العيّنات المُغنية عن غيرها، عندما يكون النص طويلاً كما هو الحال في ألفية ابن مالك، وكذلك مبدأ التركيز على ما يبدو لنا من "الانحراف" أو المتغيرات الأسلوبية الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية ضمن ما يعرف "بأسلوبيات المقال" [(١)].

وسوف يكون مجالُ التطبيق والعيّنة الأساس - فيما نعتمد عليه من ألفية ابن مالك - أبياتَ الإضافة التسعة والثلاثين في الألفية [(٢)] مع أمثلة أخرى متفرقة، وسنستعين في الإحالة إلى هذه الأبيات بالإشارة إلى

(١) انظر في تفاصيل هذه الأسس والمبادئ: في النص الأدبي – دراسة إحصائية، للدكتور سعد مصلوح ٢٢ – ٥٢.

(٢) انظر: شرح ابن عقيل ٤١/٢ – ٨٧.

أرقامها المسلسلة من واحد إلى تسعة وثلاثين. ونستطيع الآن إذن أن نقدم التحليل من خلال التفصيل الآتي:

إن ظاهرة التقديم والتأخير من الخصائص التركيبية التي تبدو جلية في ألفية ابن مالك؛ فقد أحصينا لها في العيّنة المشار إليها خمسة عشر موضعًا [(١)]، بعضها يدور في فلك تقديم الجار والمجرور أو الظرف على عامله ومتعلَّقه، كما في البيت الرابع (فعن تنكيره لا يُعزَلُ):

وإن يُشابِهِ المضافُ يَفعلُ وصفًا فعن تنكيرِه لا يُعْزَلُ (٤)

والبيت الثامن عشر (وقبلَ ... أعرِبْ):

وقبلَ فعلٍ معربٍ أو مبتدا أَعرِبْ ومَن بَنى فلن يُفنّدا (١٨)

والبيت الثاني والثلاثين (به يتصلُ):

ويُحذَفُ الثاني فيبقى الأولُ كحالِهِ إذا به يتصلُ (٣٢)

وكما في البيت العشرين الذي يستغرق فيه التقديم والتأخير البيت كله:

لمُفْهِمِ اثنين مُعرّفٍ بلا تفرُّقٍ أُضيفَ كلتا وكلا

وكما في تقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ المعرفة في قول ابن مالك:

(١) – انظر الأبيات: ١- ٢ – ٤- ٩- ١٨- ٢٠ – ٢٢- ٢٥ – ٢٦- ٣١- ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ – ٣٦ – ٣٩.

أو تنوِ الاجْزا واخصُصَنْ بالمعرفةْ موصولةً أيًّا وبالعكسِ الصفةْ (٢٢)

وثمة مواضع ثلاثة قُدّم فيها المفعول به على الفعل، وهي قول ابن مالك:

نونًا تلي الإعرابَ أو تنوينا ممّا تُضيفُ احْذِفْ كطورِ سِينا(١)

والثانيَ اجرُرْ وانْوِ مِنْ أو في إذا لم يَصلُح الا ذاكَ واللامَ خُذا (٢)

فصْلَ مضافٍ شبْهِ فعلٍ ما نَصَبْ مفعولاً او ظرفًا أَجِزْ ولم يُعَبْ (٣٤)

واثنان من هذه المواضع قُدّم فيهما المفعول به على فعله وأدى ذلك إلى الفصل بينهما بغير قليل من الكلام، حتى نرى المفعول في أول البيت والفعل الناصب له قبل آخره بقليل، ويصدق هذا على البيتين الأول والثالث مما سبق.

ومن خلال ذلك يتبين لنا أن بعض مواضع التقديم والتأخير المذكورة – خاصة ما كان من قبيل تقديم الجار والمجرور على متعلّقه – يمكن التغاضي عنها؛ لأنها تعد من قبيل الاختيارات الأسلوبية الهينة التي يمكن وقوع نظائرها في النثر [(١)]، فضلاً عن كونها من أيسر الضرورات الشعرية إذا نظرنا إليها بهذا المقياس. وتبقى سبعة مواضع أخرى تُعدّ في رأيي حجة بالغة على كونها من أهم خصائص أسلوب ابن مالك في نموذج الإضافة، بدليل أن الأبيات التي وردت فيها هذه المواضع السبعة تمثل نسبة تزيد عن ١٧% من مجموع أبيات الإضافة. ولتوضيح ذلك ننظر في هذا الجدول:

(١) انظر: لغة الشعر، دراسة في الضرورة الشعرية، للدكتور محمد حماسة ٢٩٠.

نوع التقديم والتأخير	مواضع التقديم والتأخير بحسب أرقام الأبيات
تقديم الجار والمجرور أو الظرف على المتعلَّق	٤- ... فعن تنكيرِه لا يُعْزَلُ ×
	١٨- وقبلَ فعلٍ معربٍ أو مبتدا أَعرِبْ ... √
	٢٠- لمُفْهِمِ اثنين مُعرّفٍ ... أُضيفَ √
	٢٥ – ومعَ، معْ فيها قليل ونُقِلْ ... ×
	٢٦- واضْمُمْ بناءً ان عدِمْتَ ما له أضيفَ ... ×
	٣١- لكن ... لما عليه قد عُطِفْ ×
	٣٢- ويُحذَفُ ... كحاله إذا به يتّصلُ ×
	٣٣- ... مثلِ الذي له أضفتَ الأوّلا ×
تقديم المفعول به على الفعل	نونًا تلي الإعراب .. احذف .. √
	والثانيَ اجْرُرْ ... √
	٩- ... سبيلَه اتّبِعْ ×
	٣٤- فصلَ مضاف ... أجِزْ √
	٣٦- آخِرَ ما أُضيفَ لليَا اكْسِرْ إذا √
	٣٩- وألِفًا سَلِّمْ ... √

تقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ	٢٢- ... وبالعكس الصفةْ ×

وإذا انتقلنا إلى محاولة النظر إلى التقديم والتأخير في ألفية ابن مالك، من زاوية علم النص ومبادئه السبعة، فإننا نشير أولاً إلى أن هذه المبادئ هي: السبك أو التماسك (Cohesion) والحبك أو التناسق (Coherence) والقصد والقبول والإعلامية ورعاية الموقف (أو المقامية) والتناص. والسبك والحبك معياران يتعلقان بالنص في ذاته، والقصد والقبول يتعلقان بمستعمل النص منتجًا كان أو متلقيًا، والمعايير الثلاثة الباقية (الإعلامية ورعاية الموقف والتناص) تتعلق بالسياقين المادي والثقافي المحيطين بالنص. وهذه المبادئ كلها تتحقق في الألفية بشكل ملحوظ وكبير.

وإذا كانت الرتبة والتقديم والتأخير مما يتعلق بالسبك ومن خصائصه، فمن أقرب هذه المبادئ للتقديم والتأخير أيضًا في نظرنا "الإعلامية" ؛ لأنها – كما بين أستاذنا الدكتور سعد مصلوح –كيفية استقبال النص لدى المتلقي، وحكمه على طريقة عرض المحتوى، ومدى الجدة والتوقع وتحقيق منعطفات أو إغراب وطرافة [(١)].

(١) انظر: النص والخطاب والإجراء، ١٠٣-١٠٥، وفي اللسانيات العربية المعاصرة، للدكتور سعد مصلوح ٢١٨-٢٣٥، وفي البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، للدكتور سعد مصلوح ٢٢٦-٢٢٨.

وهذا في رأينا لا يغيب عن الألفية في مواضع عديدة. من ذلك ما تثيره الأبيات الآتية - وكلها يمثل مطالع أبواب وبدايات مسائل- من دهشة وطرافة؛ لما فيها في المقام الأول من تقديم وتأخير ظاهرين:

يقول ابن مالك في أول باب "الابتداء":

مبتـــدأٌ زيـــدٌ وعـــاذِرٌ خَبَـــرْ إن قُلْتَ: زيدٌ عاذِرٌ مَـن اعتـذَرْ

الطرافة والدهشة هنا سببهما أولاً التقديم والتأخير المفطور منهما البيت؛ لأن الترتيب المفترض الأصلي: إن قُلْتَ: زيدٌ عاذِرٌ مَـن اعتـذَرْ، (فـ) زيدٌ مبتدأ وعاذرٌ خبر، ثم المفاجأة أيضًا ببدء الباب بالمثال – وهو بهذه الصورة – دون التعريف النظري بالجملة الاسمية، والتمهيد للحديث عنها بأي شكل آخر مُتوقّع.

وجاء في أول الحديث عن لا النافية للجنس:

عمَلَ "إنّ" اجْعَلْ لـلا في نكـرةْ مفـــردةً جاءتـــكَ أو مُكـــرّرةْ

وفي أول الكلام عن إعمال المصدر قال:

بفعلِه المصدرَ ألحِقْ في العمـلْ مُضافًا او مجـردًا أو مـعَ " أل "

فبغض النظر عن الجار والمجرور الأخيرين (في العمل)، نلحظ هنا أنه قدم الجار والمجرور الأولين (بفعله)على الفعل والمفعول - مع تقديم المفعول - بحيث إننا لو قارنا بين التركيب بعد التقديم والتأخير وقبلهما، سنرى ترتيبًا هابطًا وآخر صاعدًا، كما يتضح من خلال ما يأتي :

المنطوق والحاصل: بفعلِه (٣) - المصدرَ (٢) - ألحقْ (١).

الأصل والمفترض: ألحقْ (١) - المصدرَ (٢) - بفعلِه (٣).

أما إذا أدخلنا الجار والمجرور الأخيرين (في العمل)، فسيكون العنصر المقدَّم أولاً والمبدوء به هو الرابع، وستكون المقارنة بهذا الشكل:

المنطوق والحاصل: بفعلِه(٤) - المصدرَ(٢) - ألحقْ(١) - في العمل(٣).

الأصل والمفترض: ألحقْ(١) - المصدرَ(٢) – في العمل(٣) - بفعلِه(٤).

وقد ترتب على تقديم الجار والمجرور هنا أيضًا عود الضمير على متأخر عنه في اللفظ.

وجاء في أول فصل الحديث عن تابع النداء:

تابعَ ذي الضمّ المضافَ دون "أل" ألْزِمْهُ نَصْبًا كأزيدُ ذا الحِيَلْ

وفي صدر الحديث عن الترخيم:

ترخيمًا احذِفْ آخرَ المنادى كَيَا سُعا، فيمن دعا سُعادا

وفي أول العدد [١]:

(١) انظر: المواضع المختلفة لأبيات الألفية المكورة في شرح ابن عقيل ومتن الألفية.

ثلاثـــةً بالتـــاء قُـــلْ للعَشَـــرةْ في عـــدّ مـــا آحـــادُهُ مُـــذكَّرَةْ

إن كل هذه الأمثلة للتقديم والتأخير وغيرها، تحقق الإعلامية بما فيها من طرافة وإغراب وتعجيب، وهي أيضًا تضاف إلى ما ذكرنـاه مـن قبـل لأمثلة التقديم والتأخير وتؤكدها.

والخلاصة التي نستطيع أن نخرج بها من ذلك كله، أن تغيير الرتبـة بالتقديم والتأخير يعد ظاهرة من أهم خصائص ابـن مالـك الأسـلوبية في ألفيته.